الآثار البهيمية في الغرائز البشرية

والحرب الحاضرة

ان ادوار التسلسل التي مرَّ عليها الانسان في تطوره حتى بلغ درجة الرقي التي هو عليها الآن ابقت في جسمهِ آثاراً دالة على اصلهِ الحيواني كعضلات الاذن والزائدة الدودية واضراس العقل وغيرها من الاعضاء الاثرية التي شرحناها بالتفصيل في غير هذا المكان من المقتطف (انظر مقتطف يونيو سنة ١٩٠٨) وقد رأينا من الفائدة ان نبين في هذه المقالة انهُ حفظ ايضاً في معقولاتهِ ونفسانياتهِ وغرائزهِ آثاراً حيوانية لا ريب فيها وان تكن غير ظاهرة للعيان كالاعضاء الاثرية التي سبق الكلام عليها لان تلك تشاهد بالعين وتلمس باليد ويظهرها التشريح واما هذه فيستدل عليها بالظواهر العقلية . الاَّ ان البحث في هذا الموضوع لا يستوفى في مقالة واحدة فنقتصر في هذه على ما قلَّ ودلَّ توصلاً الى ما نرمي اليهِ كما سترى

اذا التفتنا الى القرود الشبيهة بالانسان رأينا انها قوية الجهاز العضلي تتسلق الاشجار العالية بخفة ورشاقة . فالجيبون منها يتدلىَّ من غصن شجرة ويثب منها الى اخرى على بعد اربعين قدماً ويفعل ذلك بإحكام وتدبُّر وتدقيق وقد يتسلَّق الشجر وثوباً بين الوثبة والاخرى من ١٢ قدماً الى ١٨ ويكرر ذلك ساعات بلا كلل ولا تعب . اما الاورانغ اوتان والشمبانزي وهما اكثر شبهاً بالانسان من الجيبون فيفعلان ذلك ببطء واحتراس عدا عن انهما اقل منهُ خفة ورشاقة

فهذه القوة العضلية هي سلاح قوي للمقاومة والدفاع غير ان القرود لا تستعملها الاَّ نادراً لانها جبانة كثيرة الخوف والحذر كأنها تجهل هذه القوة فيها عدا عن انها مجهزة باسنان قوية تساعدها على الدفاع حتى لقد يخاف الفرد من الغارة او الصقدع او الخنفساء وهي حيوانات ضعيفة لا خوف منها . ولهذا فالقرود لا تهاجم عدوها واذا هوجمت تسلقت الشجر وامتنعت في اعاليهِ واظهرت غيظها بقطع الاغصان وضرب الارض بها . وتذعر اناثها بسهولة وتهرب بسرعة وتترك صغارها تحت رحمة العدو . ولا تستثنى انثى الغوريلاَّ من ذلك رغماً عن قوتها العظيمة فهي لا تبدأ بمهاجمة الانسان اذا التقت بهِ بل تزأر زئيراً مخيفاً وتهرب منهُ ويغلب ان تجتنب مقابلتهُ

ويظهر بادئ امعان ان الخوف غريزي في الانسان وهو اول الظواهر النفسانية التي تظهر

في الرضيع فانهُ يخاف من اقل تغير في موازنتهِ ويرتعب من اضعف حيوان يدنو منهُ . ومهما كان للتربية من التأثير في تلطيف الخوف او منعهِ فان غريزتهُ تظهر بشدة وعنف في احوال كثيرة ولا سيما اذا لم يكن للعقل فرصة لكبحها وردها الى الصواب كما يحصل للبالغ عند مفاجأة تهِ بصوت مزعج او دهمهِ بمشاهدة الخيالات الليلية رغم اقتناعهِ بان لا شأن لها وباستحالة الاذى منها . ولا يعلل ذلك الاَّ بارجاع هذه الغريزة الى اصلها الحيواني ولو كان بعيداً . وسنقتصر هنا على البحث في ظاهرتين من الظواهر النفسانية ونجعلها مثالاً لبقية الغرائز والعواطف فنبين ما يحصل فيها من الفواعل والانفعالات في الحيوان ونقابلها بما يحصل في الانسان

الخوف

اول ظواهر الخوف الهرب فان الانسان يشعر عند دنو الخطر بميل غريزي الى الهرب ولو كان في الهرب خطر على حياتهِ اكثر من الخطر الذي عرض لهُ فيطلق ساقيهِ للريح فراراً منهُ . وقد يظهر فيهِ هذا الميل ولو لم يكن الى الهرب سبيل لان المجرم اذا سمع النطق عليهِ بالموت خاف واخذ يلتفت يميناً ويساراً كأنهُ يفتش عن منفذ يهرب منهُ ولو كان الجند يحيط بهِ . فهذه الغريزة موروثة في الانسان يقصد بها النجاة من الخطر وحفظ الحياة

ومن ظواهرهِ الارتجاف وبهِ تنحط القوة العضلية وتضعف الحركة فيتعذر الهرب كما يحصل للجبان الصغير النفس . والارتجاف في الحيوان يحصل بفعل عضلة قوية ملتصقة بالوجه الباطن من الجلد وهي في المجاوات ذات فائدة كبيرة وبها يلتف التفذ على نفسهِ حتى يصير كتلة كروية وينفض ريش الطير ويزبّر شعر الهر وغيرهِ من الحيوانات ذوات الثدي وقد دلل داروين ذلك بان الحيوان يحاول بهذا العمل ان يظهر امام خصمهِ بمظهر الكبر والمهابة . اما الانسان فالعضلة الجلدية فيهِ اثرية لا وظيفة لها ولا تفعل الاَّ اذا نُبِّهت تنبيهاً قوياً بمؤثر غريزي كالخوف اذ ترتجف عضلات الجذع عموماً فتنبه وظيفة العضلة الجلدية ويحصل من تنبيهها ما يسمى بالجلد الاوزي

اذا اشتد الخوف امتد التنبيه العصبي الى العضلات التي لا تخضع للارادة فيقوى الانقباض العضلي في المثانة والامعاء الى ان يستحيل حبس محتوياتها فيتواتر التبويل ويحصل الاسهال وكثيراً ما يكون ذلك من وسائل الدفاع في الحيوانات فتستعين بهِ على حفظ حياتها لان الحيوانات الصغيرة التي ليس لها جهاز قوي للدفاع عن نفسها تتقي شر عدوها بدفع السوائل والغازات النتنة التي في امعائها وقد اخذ بعضهم ذلك فوصف بهِ احد المجانين قال

فكأنهُ الظربان معتمداً على دفع المنِّ بهِ بريح معائهِ

وهذه الحالة ليست من وسائل الدفاع في الانسان الاَّ انها بقيت فيه اثراً من الاصل الحيواني لان الخوف يفعل بالجبان فعلهُ بالحيوان فيكثر بولهُ ويحدث لهُ اسهال وعليه فالخوف في الانسان غريزة اثرية اذا ظهرت نبهت الاعضاء الاثرية للعمل واعادت حركتها المشلولة منذ مدة بعيدة

الغضب

اول ظواهر الغضب قبض الكف ورفع الذراع والتحفز للضرب والانتقام . واذا بلغ اشدهُ صرَّت الاسنان وبرزت الشفتان او انقبضت الشفة العليا ورجعت زاويتها الى الوراء والاعلى فتنكشف الاسنان استعداداً للعض . ومهما حاولنا التعليل عن ذلك لا نجد لهُ تفسيراً الاَّ انهُ صفة موروثة من الحيوان الاعجم لان اسنان الانسان لا تصلح للدفاع وهو لا يعض الاَّ نادراً . الاَّ ان الطفل يلجأ كثيراً الى هذه الوسيلة كما لا يخفى

ويؤثر الغضب الشديد في الجهاز الدوري والتنفسي والعصبي اما في الجهاز الدوري فتسرع ضربات القلب وتنتفخ اوردة العنق ويحمرّ الوجه والعينان او يضعف القلب ويصفرُّ الوجه وقد يموت المغضبان بهذه الحالة من الانفعال كما يموت صاحب العلة القلبية

وفي الجهاز التنفسي يتمدد الصدر وارنبتا الانف فتتسع فتحاتهُ

وفي الجهاز العصبي تهيج الاعصاب وتشتد القوة العضلية وتتوتر الاطراف وتصر الاسنان وتطبق الشفتان وتنتصب القامة او تنحني استعداداً للوثوب واظهاراً لتصميم الارادة على الضرب واذا لم يتسنَّ للغضبان ان يضرب خصمهُ وهو بهذه الحالة من الانفعال قبض على ما تقع عليهِ يدهُ من المواد كالكراسي والاواني والمساند واخذ يضرب بها الارض كما يفعل القرد فصيح حركاتهُ جنونية اما الولد فاذا غضب انطرح على الارض واخذ يتمرغ بطناً لظهر ويرفس ويجدش ويضرب كل ما تقع عليهِ يدهُ ويصرخ صراخاً عنيفاً مستطيلاً وهذا نفس ما تفعلهُ القرود الصغيرة لان الطفل اكثر شبهاً بالحيوان الاعجم من البالغ وقد بينا ذلك اكثر من مرة في غير هذا المكان من المقتطف

ليست الغاية هنا ان نشرح العواطف والغرائز الانسانية او نبين كيفية تحولها وارتقائها لان ذلك يستدعي شرحاً طويلاً ولا يتسع بمقالة واحدة وقد كتب دارون مجلداً ضخماً في هذا الموضوع وتابعهُ كثيرون من علماء الانثروبولوجيا فاقتصرنا هنا على شرح عاطفتين او غريزتين لهما ارتباط بالاحوال النفسانية الحاضرة التي ظهرت في الحرب العامة القائمة سوقها في عالم العلم والتمدن نستدل منها على ان الانسان وان كان قد بلغ مبلغاً عالياً من المدنية فهو

يحفظ في غرائزه ونفسانياته آثاراً من غرائز الحيوانات العجماء ونفسانياتها ويرجع بها بناموس الرجعة الى الاصل فتظهر فيه شراسة الحيوان الاعجم وتتغلب على العواطف الشريفة المكتسبة

على ان من حظ البشرية ان الغرائز البهيمية الكامنة فيها لا تظهر الاَّ في احوال معينة كالحقد والبغض والانتقام في الاحوال الشخصية وحب العظمة وحب الاثرة في الاحوال العمومية التي تجر الى الحروب المدمرة والهادمة لاركان الانسانية والمدنية . وتبقى العواطف الشريفة المكتسبة غالبة في قسم كبير من البشر الذين ينشرون الدعوة الى منع الحروب واذا انفجر بركانها ودوى دويها قالى تخفيف مصائبها وويلاتها كأن في الانسان عاملين كبيرين يتنازعانه العامل البهيمي والعامل الانساني وكلاهما يجاهد للفوز بدعوته . فبينما نرى العوامل البهيمية تدك صروح المدنية نرى العوامل الانسانية تشيد صروح الرحمة والرفق والمؤاساة فتؤلف جمعيات الصليب الاحمر والهلال الاحمر وتؤامي الذين يساقون الى المجزرة كالاغنام ليكونوا ضحايا الجنون وخلمة المطامع

ان للتربية تأثيراً كبيراً في توجيه الاميال والعواطف وفي اصلاحها او افسادها فرجال الدين والعلم ينزعون الى تقوية العامل الانساني اي الى تقوية العواطف الانسانية الشريفة المكتسبة ورجال السلطة ينزعون الى تقوية الغرائز الحيوانية وهم فريقان فريق يدعو الى التوسع والاستئثار بالسلطة والمنافع العمومية وهو الذي يميل الى الحرب ويربي الامة تربية حربية وفريق يدعو الى الاستعمار السلمي ونشر المدنية وهو لا يذهب الى الحرب الاَّ مرغماً

ولما كانت مصالح الامم متباينة والمنازع مختلفة والمدارك متنوعة وكان لا بد من وجود اشرار في العالم فيرجح ان الحروب لا تبطل وان بعضها واجب لدفع شر الاشرار وتعدياتهم كما يجب قتل الحيوانات القتالة كالنمر والاسد والافعى وهذا ما دعا رجال المدنية الى عقد المؤتمرات لسن نظام للحروب لتخفيف ويلاتها وحصر نطاقها في الفئة المحاربة وعدم التعرض لغير المحاربين ولاسيما للضعفاء كالشيوخ والنساء والاطفال واحترام معاهد العلم والدين والرفق بالاسرى والجرحى وكل ما عملوا من هذا النوع حسن اذ ما لا يدرك كله لا يترك جله

فاذا لم تُراعَ السنن والقوانين التي وضعت لتخفيف ويلات الحرب واندفع فريق من المحاربين الى التخريب والتدمير وظهرت في اعماله ظواهر الشراسة والبغض والحقد والانتقام دل ذلك على ضعف الرقي الانساني في ذلك الفريق وعلى كونه لا يزال منحطاً في سلم المدنية واقرب من الفريق الثاني الى البهيمية

الدكتور امين ابو خاطر